الحروف المنقوشة بجامع القرويين(*)

بقلم عبد الهادى التازى

عندما يتحدث المرء عن الحرف المنحوت بجامعة القرويين فإنما يحاول أن يتحدث عن تاريخها المعمارى عبر التاريخ ، ذلك لأنه لم تخل مرحلة من المراحل التى عاشتها دون أن تترك من ورائها أثراً شاخصاً يذكرك بهاتيك العصور ... والحقيقة أن القرويين منذ كانت وهى « قديسة مدللة » سواء من لدن رجال « السلطة المركزية » أو من لدن « الطبقات الشعبية » ، فكلهم كان يتسابق إلى إظهار آيات الإكبار والإجلال لها باعتبارها « المنار » الذى أشع على المغرب نور العلم والإيمان ، وباعتبارها المعقل الذى كانت تعتمد عليه البلاد فى إعداد رجالها وقادتها ...

والكلام على « الحروف المنحوتة » بالقرويين له جوانب كثيرة فهناك جانب الفن ، وهناك جانب النوع والشكل ، وهناك أيضا جانب «القيمة الأثرية» ، ونحن فى هذا البحث سنحاول أن نلقى نظرة على هذه الجوانب مع وقد ظلت النقوش بالقرويين حديثاً يروى ولكن من غير أن يستوعب ، بل ومن غير أن يتناوله الأثاريون بالتنقيب والتمحيص ..

أول خط منحوت

ويرجع تاريخ أول خط منحوت عرف بالقرويين لأواسط القرن الثالث الهجرى ، ويتعلق الأمر بلوحة أثرية ووثيقة تاريخية فى الوقت نفسه عثر عليها فى القبة الرابعة من جهة العنزة ، أى فى منتهى « البلاطات الأربعة » القديمة(١) ، اكتشف هذه اللوحة مدفونة فى الجبس تحت كثافة

(*) نص المحاضرة التى قدمت بمؤتمر الثالث للآثار بالبلاد العربية المنعقد بمدينة فارس (المغرب) فيما بين ٨-١٨ نوفمبر ١٩٥٩

سبعة سنتيمترات ؛ مكتوبة بالخط الكوفى العتيق ، ولو أن طائفة من حروفها متآكل ومتعب ، بيد أنها مقروءة فى الجملة ولم يفت منها إلا القدر اليسير .

طول اللوحة أربعة أمتار وأربعة وسبعين سنتيمتراً ولكنها ليست عريضة إذ أن سعتها لا تتجاوز تسعة سنتيمترات ونصف .

نحن نعرف من كتب التاريخ أن فاطمة الفهرية التى تطوعت ببناء القرويين حفرت أساسها فى فاتح رمضان ٢٤٥ ، وأنها لم تزل صائمة إلى أن انتهت أعمال البناء ، ولم يستطع أحد من المؤرخين أن يحدد المدة التى انتهت فيها تلك الأعمال .

وتحدثت المراجع التاريخية كذلك عن أن العمل كان يباشر بمطالعة العاهل الادريسى يحيى الأول ، ولكن أحداً لم يشر إلى عاهل آخر أتى من بعده وكان له النصيب الأكبر فى هذا المشروع ، بل إن جميع المصادر التاريخية التى تحت أيدينا لم تتعرض لهذا العاهل الثانى إلا فى سطر واحد (٢) ومن هنا تدرك القيمة الأثرية والتاريخية كذلك التى تمتاز بها هذه « اللوحة » ، فهى تحمل أولا تاريخ انتهاء العمل فى المسجد ، وهو « شهر ذى القعدة من سنة ثلاثة وستين ومائتين » وبذلك تكون أعمال البناء قد استغرقت ثلاث عشرة سنة .

واللوحة تحمل ثانياً سراً آخر يفوق الأول فى الخطورة ، ذلك أنها تنصف عاهلا إدريسياً مرت عليه الكتب مرور الكرام بالرغم من أنه ظل المسيطر الحقيقى طيلة الفترة « الغامضة » التى عاشتها فاس بعد توزع الأمر بين بنى ادريس ؛ هذا العاهل هو داود بن إدريس الذى كان عاملا على إقليم تازة من قبل أخيه محمد ... ، لقد نُحت فى هذه اللوحة اسمه على النحو التالى : « مما أمر به الإمام أعزه الله داود بن إدريس أبقاه الله » .

وإذا كنتُ قد ألححتُ على إبراز هذا الأثر النفيس لأنه من ناحية أول أثر عربى استطاع أن يصمد أحد عشر قرنا فى هذه البلاد ، ولأنه

من ناحية أخرى ينطوى على «فتح» عظيم فى التاريخ المغربى، إذ أنه فيما أعتقد سيضطر الذين يعنون بالتاريخ إلى مراجعة كتب : القرطاس ، وتاريخ ابن خلدون ، والاستقصا فيما نقلوه تباعاً عن أيام الأدارسة ، سيضطرهم هذا الأثر الذى لا يصل إلى نصف متر مربع إلى تحبير عشرات الأمتار ...، إن عليهم أن يتساءلوا عن ملك دواد ؟ وعن العاهل الذى بنيت على عهده القرويين ، هل هو حقيقة يحيى أو هو عمه داود بن إدريس ، أم أنها ابتدأت على عهد الأول وانتهت على عهد الثانى ؟

من عصر المرابطين

وإذا نحن جاوزنا هذه الحقبة الأولى من التاريخ فسنجد أنفسنا أمام ثروة أخرى هامة ثروة تحدثت عنها الكتب ولكنها ظلت دفينة طوال قرون حتى هذه الأيام ...، لقد قام المرابطون أوائل القرن السادس الهجرى باصلاحات هامة فى القرويين ، ولو أن أيامهم بالمغرب لم تكن طويلة ، ثم اختفوا من الميدان ، ومن سوء الحظ أن ظهور الولاة الجدد كان — بدافع الغيرة — عاملا على كتم أنفاس الفن المرابطى الجميل ، مما دعا طائفة من رجال الآثار إلى الحكم على المرابطين بحسور الذوق وضحالة الإنتاج ، وبالرغم من أن كتب التاريخ قد عرضت فى شىء من الإيجاز لما قامت به أيدى المرابطين من إبداع فى البلاط العمودى الذى يمتد من المحراب إلى العنزة ، وبالرغم من أنها رددت صدى «النقش والتخريم وأصناف الصبغة» — على حد تعبير القرطاس — (٣) ، فإن سوء الظن بالفن المرابطى ظل حليفاً لطائفة من رجال الآثار لدرجة أن بعضهم نسب بعض آثارهم للموحدين ، وراح يقارن بين آثار هؤلاء فى فاس وآثارهم فى مدينة مراكش مثلا. (٤)

نعم تقرر منذ عشر سنوات — بالحاح من مدير جامعة القرويين إذ ذاك — القيام باصلاح عميق فى تلك الجهات من المسجد ، وهنا برزت للعيان تلك النقوش وتلك التخريمات ، وظهرت أصناف الصبغة الحمراء والصفراء والبنفسجية ، ولا يهمنى — وأنا أتحدث عن المنقوشات — إلا هذه الحروف المنحوتة التى كشفت عن كثير من الأسرار التى استمرت مكتومة طيلة ثمانية قرون .

لقد عرفنا فى كل الكتب التى تحدثت عن تاريخ فاس أن أعمال البناء التى قام بها المرابطون – بما فى ذلك جامع الجناتز – تمت سنة ٥٣٨ ، لكنا وقفنا من تحت هذه الطبقات من الجبس على نقشين أثريين ... ثم وقفنا على نقشى آخر نحت على باب جامع الجناتز ... وكل هذه الوثائق تؤكد أن أعمال البناء انتهت سنة ٥٣١ ، أى سبع سنوات قبل التاريخ الذى أجمعت عليه المؤلفات التاريخية :

فوق الشماسية الوسطى الموجودة على المحراب عُثر على « لوحة كتبت بالخط الثلثى تحمل اسم الفنان الذى باشر عمله هنا : (عبد الله بن محمد) ، كما تضبط وقت انهاء العمل وهو : شهر رمضان المعظم سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة (١١٣٧) .

وإلى جانب هذا تقرأ فى الجهة الشرقية من القبة المستطيلة التى تلى قبة المحراب بخط كوفى عتيق وجميل أيضا : اسم العامل المرابطى الذى أذن بالقيام بهذه الإصلاحات ، وأعنى به السلطان على بن يوسف بن تاشفين ... وفى الجهة الغربية من القبة المذكورة نقرأ نفس التاريخ الذى تحمله الوثيقة الأولى .

فإذا ما انتقلنا إلى باب جامع الجناتز نستطيع أن نقرأ هذه الجملة منحوتة على الصفر يمين عروة الباب* : (عمل عبد الواحد عام إحدى وثلاثين وخمسمائة) .

وأعتقد أنه سيكون فى إبراز هذه الخطوط بتمامها سواء منها الرسومات التى تحتوى التاريخ والمؤسس ... أو التى تتضمن بعض الآى والحكم سيكون فى إبرازها للناس أثر قوى يساعد على تصحيح الفكرة السائدة عن الفن

* هذا الباب هو الذى نقل إلى الخارج ليعرض فى أول مؤتمر للمهندسين المعماريين بباريس سنة ١٩٥٧ ، وهو الذى شاهد المعرض الدولى فى بروكسل سنة ١٩٥٨ ، فكان الوجه المشرق للآثار الإسلامية بالمغرب ، وانهالت آيات التقدير والتهانى على أثر لم يكن وليد اليوم ، ولكن من عمل صانع مغربى من أوائل القرن السادس .

المرابطي ؛ ومن المفيد أن نذكر في هذا الصدد أن ظهور هذه النقوش والزخارف دعا بالفعل منذ الآن بعض الذين يعنون بالآثار إلى الإشادة بالشخصية التي ينعم بها الفن المرابطي وإلى تتبع مفاتنها ومفارزها ؛ والمقارنة بينها وبين الفنون التي استطاع التاريخ أن يحفظها للمرابطين في جهات أخرى ؛ (٧) بل إن من بين رجال الآثار الغربيين من راح يعلن أن هذه القباب المسبعة التي تصافحها أعيننا بالقرويين هي أقدم القباب القائمة على مقرنصات (Stalactite) ذات أبعاد واسعة (٨) .

ولا نترك العصر المرابطي دون أن نقف برهة أمام منبر المرابطين ؛ لقد كان من الروعة الفنية والقيمة الأثرية بحيث يكون وحده « عالما » يستحق عناية الآثاريين ، إنه أفخر أثاث خلفته لنا العصور الوسطى وإنه إلى جانب هذا أروع مثل يحتذى في الزخارف المبنية على الأسس الهندسية .

إن الحديث عن نقوش المنبر يتطلب من المرء أن يتزود بمقاييس فنية دقيقة ، فهو علاوة على الزخرف المتناسق الجذاب الذي كسا كل جوانبه ، طُرز بآيات شريفة من الصدف الثمين تحيط بمدخله ذاهبة من اليمين إلى اليسار بخط نسخي أندلسي مقروء ... وعلى طول درجه طرز ببقية من آية أخرى بالعاج ، ولكن الحروف هذه المرة بالخط الكوفي القديم الذي تتحكم فيه الزخرفة فيتعصى أحياناً على قارئيه ، إنك تستطيع أن تقرأ عن يسار المنبر « يوفون بالنذر ويخافون يوماً تتقلب فيه القلوب ... » ؛ ويدلك على شدة اعتناء المتقدمين بهذه الثروة النادرة المثال أنهم خصصوا للمنبر غشاءين أحدهما من الجلد ، والثاني من الكتان يزاحان عنه كل جمعة (٩) . ويدلك على ثروته أيضا أن النفقة عليه قدرت بما يزيد على ثلاثة آلاف وثمانمائة دينار ، أي ما يساوي أزيد من أربعة ملايين من الفرنكات الحالية .

ولقد كان المنبر يحمل على ذروته تاريخ انتهاء العمل فيه (١٠) ، لكن هيام المختلسين بالعاج والصدف جعلت هذه الأحرف هدفاً للضياع ، ولذلك فلم يبق منها سوى بعض الحروف المتآكلة ، كما يلاحظ ذلك من يتسلق أدرجه الأربعة عشر .

من عصر الموحدين :

ومن آثار العصر الموحدى توجد أبواب داخل المسجد تنفذ من قاعة الصلاة إلى جامع الجنائز ، تعرف هذه الأبواب باسم « أبواب الرواح » ، فيها العليا التى تجاور المحراب ، والوسطى ، ثم السفلى ؛ وكل هذه الأبواب من خشب لكنها استحالت إلى لوحات فنية قليلة النظير ، فهى سلسلة من زهور ورسوم منحوتة ، وتمتاز العليا من هذه الثلاثة بأن مصاريعها تحتوى عدة آيات ، وهكذا فستقرأ هناك محيطاً بها : « إن فى خلق السموات والأرض .. الأيات » ، وستقرأ تحت هذا : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله .. الآيات » كما تقرأ : « يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا ... الآيات » ، وستقف إلى جانب هذا وسط الباب على بيتين من الرجز :

يا واقفاً لدىّ إنْ ... أبصرتَ منى ماترى
جُدْ بالدُّعا لصانعى ... بجاهِ سيِّد الورى

تُرى كيف أنهم لم يجدوا عنتا ما فى التخريم والتطريز ؟ . ولقد كانت هذه « الدفف الحمراء » تحمل اسم مالكها ابن الملجوم ، واسم الصانع ، وتاريخ الصنع ، أعنى سنة ٥٧٨ ، لكن الذين كانوا يقومون بين الفينة والأخرى بأمر الإصلاح فى القرويين كانوا لايكترثون بمثل هذه الوثائق ، وإن من البرور ما يعتبر عقوقاً كما يقولون ! (١١)

ولننتقل من نقوش أبواب الرواح إلى « الثريا الكبرى » ، هذه الثريا الأثرية التى لا يمكن أن تقارن مطلقا فى الشرق والغرب إلا بالثريا التى توجد بالمسجد الأعظم بمدينة تازة ، سواء من حيث أبعادها وثروتها الفنية ، أو زخرفها البديعة (١٤) .. لقد احتوى جانب من الساق الذى يحملها على هذه الوثيقة التى تتضمن اسم العاهل الموحدى أبا عبد الله الناصر الذى أمر بصنع هذه التحفة عديمة المثال فى العالم الإسلامى ، كما يتضمن جانب من الساق أيضا هذه العبارة :

«صنعت هذه الثريا بمدينة فاس حرسها الله وكان الفراغ منها فى شهر جمادى الأولى سنة ستمائة » .

هذا إلى ما نقش على إفريزها الأول والثانى والثالث من آيات قرآنية بخطوط نسخية تختفى أحيانا بين الزهور المنحوتة ..، وبخطوط كوفية تتحول أطرافها هى الأخرى إلى باقات منسجمة ... (١٥)

ولننتقل من الثريا الكبرى إلى صحن المسجد لنقف على « خصة العين » التى نعتها الشعراء الأقدمون « بالخصة الحسناء » ، والتى تمتاز أكثر ما تمتاز بشباك من رخام أبيض يحتوى على مائة وأربعة وعشرين خاتماً ..، ويوجد تحت هذه النافذة البديعة تاريخ الصنع وقد نحت بخطوط نسخية على حجر أحمر ، ونصه بعد التسمية والتصلية : « وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار .. الآية » ثم بعد هذا « كمل فى شهر جمادى الأخرة سنة تسعة وتسعين وخمسمائة » .

وهذه الحروف المنحوتة علاوة على احتفاظها بروعتها الأثرية فانها تؤرخ دخول الماء إلى صحن القرويين بعد أن كان يقتصر على باب الخفاة ...

من عصر بنى مرين

إذا انتقلنا إلى عهد المرينيين نجد أن أول حرف منحوت بالقرويين يرجع إلى عهدهم هو ما يوجد منحوتا على خشب العنزة حيث يرجع عهده لسنة سبع وثمانين وستمائة ، حيث قام الناهض المرينى الثانى أبو يعقوب بتعويض الألواح الساذجة التى عرفت منذ أيام المرابطين بهذه النوحة (١٦) الفنية الرائعة التى كانت تخلب الألباب بغريب صنعها ودقة نقوشها وانسجام زخرفها وخطوطها الكوفية والنسخية ...

ولولا أن بعض الأيدى غير المختصة تسرعت إليها — عن حسن نية — لتعيد إليها بهجتها (١٧) القديمة لكانت العنزة أجل مما نراه اليوم ، ولكنها مع ذلك ما تزال كعنزة الجامع الكبير بفاس الجديد تملأ العين ..، وما تزال تحتفظ بتسعة أبيات همزية ،

بهجتى فى الثريا وفوق الثريا ... فهى فى الأرض تردهى والسماء

وما تزال تحتفظ بالتاريخ ضمن هذه الأبيات

وأبرز ما يرجع إلى عهد السعديين ساريتان وخاميتان متقابلتان بالقبة التى توجد تحت الصومعة والتى تنسب للسعديين ... فلقد كتب موزعاً على أربع زوايا هذه الفقرات :

" أمر ببناء هذه القبة السعيدة عبد الله على أمير المسلمين ،
ابن مولانا أمير المسلمين أبى سعيد ، بن يعقوب ، بن عبد الحق ،
فكملت سنة خمس وأربعين وسبعمائة "

ولقد نقشت هذه الحروف فى موضع من الساريتين قد يخفى على كثير من الناس ... وهى – أى هذه الحروف – ترغم رجال الآثار اليوم على أن يضعوا علامة استفهام بارزة أمام ما نقل عن اليفرنى (١٩) والاستقصا (٢٠) أولا ، ثم ما عرف عن : م ريكار (٢١) ، ولوتورنو (٢٢) ، وطيراس (٢٣) ؛ بل وعما نقش وخرم فى الخشب ظاهر هذه القبة وباطنها مما يفيد أن هذه من عمل حفيد المنصور الذهبى ؟

ولننتقل من « القبة » إلى البلاط الأوسط حيث يوجد ناقوس هو سادس ستة غنمها المسلمون فى غزواتهم الأولى بجنوبى أسبانيا ... ؛ والستة تختلف بحسب الأهمية ، لكن اثنين منها يغلب على الظن أنهما جلبا من إحدى كبريات المدن الإسبانية ، وخاصة الناقوس الذى يوجد فى القبة الثالثة ... ، تحدثت كتب التاريخ أنه نقش على نطاقه :

« من أمر بتعليقه أبا الحسن المرينى والجهة التى ورد منها وهى جبل طارق » (٢٤)

لكن هل بقى لهذه الأحرف من أثر اليوم ؟ من المؤسف أن يكون جوابنا سلبياً ... ويظهر أن « التجديد » الذى توالى على هذه الأجراس عصف بذلك التذكار المجيد الذى بقى محفوظا فى كتب التاريخ ... ؛ نعم تشتمل الأجنحة الاثنا عشر على فقرات بخط كوفى تنتهى برسوم وزهور كذلك ، ولكنها لا تزيد على : « الغبطة المتصلة » و « اليمن والإقبال » ؛ ثم نقشت

فى إفريز الجرس بعد التعوذ والبسملة والتصلية : « الله نور السموات والأرض ... الآيات ... » ، ولا يفوتنا أن نشير إلى أن ظهر الناقوس يحتوى على أحرف باللغة الأسبانية ترجمتها :

"على الروح الطيبة أن تشكر الله على أن أنقذها من الضلال"

ولننتقل من الأجراس إلى الخزائن العلمية التى شيدها المرينيون. فنحن منذ القرن الثامن الهجرى أمام خزانة علمية منظمة تعوض الخزائن القديمة التى عرف بعضها من قبل فى المدرسة اليعقوبية (٢٦) ، نحن الآن أمام خزانة تشتمل على — كما هو تعبير الجدوة — على (٢٧) مختلف العلوم بقصد تقدم الفنون وتوسيع دائرة العلم وتقويته » .

ومن أبرز ما تشتمل عليه هذه الحروف المنحوتة أنها تحدد هى ذاتها قانون إعارة الكتب ، وتهتم على الخصوص بأمر « حفظ المخطوطات » كتراث تجب رعايته ، لقد نقشت هذه الوثيقة الهامة على الخشب فى جمادى الأولى سنة خمس وسبعمائة ، وما تزال محتفظة بالحياة إلى اليوم فى أعلى المستودع الموجود فى الركن الشرقى الشمالى للقرويين .

ومن الخزانة نصعد إلى صومعة القرويين أى إلى الغرفة التى بنيت خصيصاً لرجال التوقيت بمنار القرويين ، وهنا نقف على أثر من أهم الآثار التى تضمها القرويين ، هذا الأثر الذى ظل خاملا إلى هذه الأيام ، وكان الفضل فى اكتشافه يرجع لهذه النقوش التى نحت هذه المرة ليس فى الرخام ... وليس فى الخشب ، ولكن على صفائح من الصفر الجيد ...

فمنذ سنة ٦٨٥ عرف منار القرويين ساعة مائية للمعدل ابن الحباك (٢٨) نصبت بالغرفة العليا ... ، ولكنها تلاشت ووضعت مكانها ساعة مائية ثانية من صنع الصنهاجى والقرسطونى (٢٩) سنة ٧١٧ ، كانت هى الأخرى آية فى الدقة والإحكام ، لكنها لم تصمد أمام توالى الزمن ... ، وحرص المرينيون على تعويض الثانية بثالثة ...

فمن كان الآمر بصنع الساعة ؟
ومن كان المخترع ؟
وأين هي هذه الساعة ؟

لقد تحدث الناس عن السلطان أبي سالم المريني وهوايته في التوقيت والفلك ، وتحدثوا عن نخبة ممتازة من العلماء الاختصاصيين في هذا الفن كانت توجد على عهده ، وكان من أبرزها أبو زيد عبد الرحمن الجاي الذي أخذ (٣١) عن ابن البناء ... فهل ذلك هو المقترح وهذا هو المخترع ؟

لقد عجزت كتب التاريخ عن الإجابة لولا هذه النقوش المتعبة التي عثر عليها بالصحيفة السفلى من الأسطرلاب (٣٢) الذي يرتبط بالساعة المائية المذكورة ، ونص هذه العبارة التي لا تكاد تقرأ :

« صنع هذه المجانة السعيدة العبد الفقير إلى مولاه راجياً ثوابه عبد الرحمن بن سليمان الجاي ، عن أمر مولانا أبي سالم ابن مولانا أبي الحسن بن مولانا أبي سعيد ابن مولانا أبي يوسف ابن عبد الحق ، أيّده الله ، وكملت يوم ٢١ محرم سنة ٧٦٣ »

لقد كان الدكتور برايس المستشار في تاريخ التنجيم بأمريكا طلب إلى السفارة المغربية في واشنطن أن تزوده بمعلومات عن ساعة مائية توجد بصومعة القرويين (٣٣) ، وذكر أنه لو صح وجودها لكانت أقدم ساعة مائية في العالم ، فهل سيسوغ لنا — باعتبار أن هذه تقترن بالأسطرلاب — أن نقول إن أقدم ساعة مائية في العالم هي التي تحتضنها اليوم هذه الغرفة الهادئة ؟ نحن لا ندري بالضبط كيف كان يتم سير الساعة المشار إليها شأن أخرى قريبة منها صنعت أيام أبي عنان سنة ٧٥٨ ، نرجو أن يوفق الأثاريون (٣٤) العرب الى الوصول إلى أسر هذا العفريت الذي يصفه العلماء الأمريكان بأنه أقدم اختراع من نوعه في العالم .

الأسبوع الأعلى :

وإذا ما انتقلنا إلى الزاوية الغربية الجنوبية من القرويين حيث المصرية يصعد إليها من جامع الجنائز والتى نعتت فى الحوالات (٣٥) الحبسية القديمة « بالأسبوع الأعلى » : أقول إذا ما صعدنا هذه « الزاوية » فسنعثر من خلال النقوش على تصحيح آخر لأثر من آثار القرويين ... فنحن على علم من أن بعض المؤرخين (٣٦) يعزو هذه « الزاوية الغربية » الى العاهل السعدى أبى محمد عبد الله الشريف الحسنى ولكن هل أبو محمد هو الذى قام حقيقة بتشييد هذه البناية ؟.. إن ما حوالى تيجان السوارى الرخامية الثلاث التى توجد على نافذة هذه « الزاوية » تتحدى هؤلاء المؤرخين ... فلقد نقش على السارية الجنوبية :

"أمر بعمل هذه السارية مولانا السلطان أبو فارس عبد العزيز عام سبعين وسبعمائة" (٣٧) .

على أن كلاً من السارية الوسطى والشمالية تحمل اسم عبد العزيز ... ، من الجائز أن يكون السعديون قاموا بإصلاحها وترميمها ، ولكن الذى لا يجوز هو أن تنسب إليهم بدءاً ونهاية ، ولعل للظروف أثرا على هذه القسة ... ، ولعل للمؤرخين عذراً فى هذا الانتحال ...

وفى جملة ما عرف بالقرويين منذ التاريخ المبكر إعداد السكن لأئمة الجامع . فمنذ أيام الموحدين رددت الكتب ذكر بيت للإمام وان كنا على يقين من أن هذا البيت كان يوجد قبل الموحدين ... ، واستمرت الكتب تذكر دار الإمام أيام بنى مرين وبنى وطاس ، ولكن هل عُين موقعها ؟

لقد ظلت الكتب خرساء حتى كشفت عن ذلك الرخامة المنحوتة التى كادت تختنق تحت الجبس والتى توجد على باب البيت نفسه ، ... وتحمل اسم عبد الحق المرينى الأصغر ، واسم وزيره الأول أبى زكريا يحيى بن زيان الوطاسى ، وتحمل مع هذا تاريخ الشروع فى بناء المصرية الجديدة للإمام والخطيب ، وتاريخ الفراغ من البناء فى ذى القعدة عام أربعين وثمانمائة (صورة) .

وهذه الرخامة كما نرى كتبت سطورها التسعة والعشرون بخطوط عادية بسيطة تختلف كثيراً عن الذوق الذى نقشت به رخامات المدارس الداخلية للطلاب أوائل دولة بنى مرين (٣٩) .

أما عن الحروف المنحوتة أيام الدولة السعدية فهى كثيرة أيضا، فقد كانوا يحرصون إلى جانب التفنن فى نحتها على أن تكون مقروءة بارزة ... ؛ بيد أن هذا « الجشع » من السعديين أو من مؤرخيهم على « حب الظهور » كان مما يسيء أحيانا إلى الآثار ، فهم — باستثناء الخزانة السعدية (٥) — يرممون ويصلحون، ولكنهم لا يقنعون بتبنى هذا الإصلاح والترميم ،ولكنهم قد يعدونه إلى اكتساح المشروع فى البداية ؛ وسنترك أمر تحقيق القبتين فى الصحن ، واللتين تشهان إلى حد كبير ساحة الأسود بقصر الحمراء فى غرناطة ، ونكتفى فى هذا البحث بتناول ما نقش على الخشب سواء فى القبة الشرقية أو الغربية ...

القبة الشرقية :

تعتبر القبة الشرقية هذه أقدم من القبة التى تقابلها ، (٤١) لكن أحداً من الأثاريين لم يستطع إرجاعها لعصر ما من العصور ؛ وإن كانت رشاقة سواريها مما يجعلها شبيهة بما شيده المرينيون فى بعض المدارس المرينية (٤٢) والمهم اليوم أن نرفع أبصارنا إلى جوانب هذا الرواق البديع الذى تجدد دون شك بعد أيام المنصور السعدى (٤٣) .. ، لقد خرمت على الجانبين الجنوبى والشمالى من الرواق أبيات أربعة من شعر أبى العباس أحمد الغرديس (٤٤) كان نظمها بمناسبة وصول الحصة السعدية للقرويين ، فعلى الحد الجنوبى :

حُسْنُ سَنَا منظرى يستوقف النظرا ، وفائقُ الصُّنْع منى طرَّز الطُّررا
حبابُ ماءٍ من الدرِّ النثير غدا وصوبُ وردى من ذوب اللجين جرى

وعلى الحد الشمالى :

ابنُ بنى الهدى المنصور أبدعنى من فيض نعماه مابين الورى انتشرا
فعالُ برِّه لا تُحصى تعددها ، وخيرُ آثاره يصدق الخبرا

وقد كان من المفروض أن يشتمل الحد الغربي على بيتين آخرين من شعر أبي العباس هما :

لا يشفي رشفُ ثغري من ظما إلا ومحمد مني الورد والصدرا
من أم قرى بفرض أو بنا فلة يجد معيني مبينا للطهور سرا

وهذا ما كان في أغلب الظن ، لكن تجديداً ثانياً فيما يظهر عصف بهذين البيتين ليحل محلهما بيتان آخران دونهما ، بيد أن التخريمات المزهرة التي كتبت بها الأبيات كلها كانت آية في الإبداع والإتقان ...

القبة الغربية

أما القبة الغربية فبقطع النظر عن ساريتيها اللتين تحملان نقوشا تفصح عن أصل هذا الأثر أو تلقي — بالحرى — على النسبة المتداولة نوعاً من الشبهة والارتياب ، أقول بقطع النظر عن ذلك نجدها مجللة بالحروف المنحوتة سواء من داخلها أو خارجها ... ، فمن داخلها نقشت أبيات ثمانية رائية تبتدىء هكذا :

ياواقفاً سِرَّه صُنْعي وتصويري ، حُسْنُ سَنائي بديعٌ غيرُ منكورِ
يامَنْ تَرَشَّفَ عَذْبَ الماء من ظَمَأ ، عليك أقسمتُ بالأحزابِ والنورِ
تدعو بنصرٍ لمن لاحتْ محاسنُه على الدُّنا ، كهلالٍ فوق دَيْجورِ

إلى أن يقول :

أبو محمد عبدُ الله أفضلُ مَنْ حَلاَّه ربي بسجف الحسن والنورِ
فما خلص له دعوة تمحو اساءته بجاه أُمِّ القرى والبيتِ والطورِ (٤٥) :

أما خارج القبة فقد نقشت هي الأخرى من جهاتها الثلاثة بأبيات تؤكد تأخر هذه عن القبة الشرقية في وقت البناء أو التجديد على الأصح :

بدائعي نسخت لما تلت سورا من الجمال الذي أبدى بها صورا
آيات تلك التي قالت مصرحةً حسنُ سنا منظري ستوقف النظرا
فحقها أن تحطَّ الرأسَ صاغرةً ، فالكوثرُ العذبُ من ماء المعين جرا
في عام زهو بعيد الألف أبدعني لهجرة من دنا من ربه وسرا

على أنه يوجد فى هذه القبة بالذات عند قوسها الشرقى خدان متقابلان خرما بالخشب . والجنوبى منهما يحمل اسم أبى محمد عبد الله كذلك ...

من عصر الأشراف العلويين :

أما الأشراف العلويون ... فقد انصرفت همتهم فى القرويين إلى المحافظة على التراث الماضى جد المستطاع ، والعمل ما أمكن على إضافة بعض المعالم.. ، ولعل أقدم نقش حفظ فى القرويين لهذه الدولة هو النقش الذى نحلت به الكتب أيضا .. ، ولم تتوصل إليه الأثار كذلك .. ، إنه يوجد فى الإفريز الرابع من الثريا الكبرى .. ، لقد ظل الناس يعتقدون أن هذه الثريا المرابطية ظلت كما هى منذ تلك الأيام إلى الآن ، لكن الحروف المنحوتة تكشف لنا هذه المرة أيضا أن هذا الأثر حظى منذ قرنين ونصف بتجديد حفظ لها الحياة .. ، فنحن نستطيع أن نقرأ على هذا الإفريز بخط نسخى هذه العبارات :

« تجددت هذه الثرية بأمر من المولى إسماعيل سنة ثلاثين ومائة وألف »

أعنى فى نفس الفترة التى كان يجدد فيها ضريح المولى إدريس ...

وبعد المولى إسماعيل أتى دور السلطان محمد الرابع عندما أصدر أوامره بإصلاح العنزة الحالية التى تتعرض دائما لفتح الشمس وسعير البرد ، وأنت إذا ما رفعت ببصرك إلى جوانبها ستقف على مختلف الآيات بمختلف الخطوط ، ولعل أجمل ما يسترعى النظر ذات اليمين وذات اليسار دائرتين نقشت عليهما سورة الإخلاص فى حروف بديعة محسوبة بحيث يخيل إليك أنها زخرف فقط .. ، وهنا فى أعلى العنزة نقرأ تاريخ أيام المولى محمد الرابع ١٢٨١

أما على أيام المولى الحسن فقد توجهت العناية للقيام بإصلاح القرويين من جديد ، وهنا زُود صحنها بالمزاول الشمسية علاوة على ما تكتسبه الصومعة .. ، وهكذا كانت الساعتان الشمالية والشرقية وقد كانتا من صنع

الموقت الجيلانى الرحالى المكناسى (٤٧) ..، وتمثل الأحرف المنقوشة على المزولة الشمالية أبياتا همزية ثمانية :

يا داخلا بيت الالاه توُمه، لا تَنْسَ رَفْعَ الطرْفِ نحو سناء
حقّقْ جديدَ الوقتِ من ساعتنا الأبيـــــــــــــات (٤٨)

وفى هذا العصر بالذات أعيدت زخرفة نقوش قبة الجرس الأكبر، وما يزال المكان الذى كان يحمل تاريخ ١٣١٥ بادى الأثر .

ثم بعد ذلك عصر المولى يوسف — قدس الله روحه — الذى كانت له جولة فى نقوش القبة الشرقية بالصحن ، (٤٩) وأنا على مثل اليقين من أنه على عهده نقش البيتان على الجهة الغربية من القبة المذكورة .

ثم هذا عصر جلالة محمد الخامس الذى دشّن أيامه الأولى بالالتفات إلى معالم القرويين ، وهكذا بمناسبة إدخال الضوء الكهربائى لأول مرة بالقرويين سنة ١٣٦٩ هـ أمر باصلاح جميع الثريات والأجراس .. ، ولهذا نرى أن أول خط منحوت عرف على عهد صاحب الجلالة هو الخط الذى نقش على إفريز « الجرس الاسبانى » المعلق فى القبة السادسة من جهة العنزة .. ، ثم كان النقش الثانى هو الذى يوجد بمنة الداخل لخزانة القرويين الجديدة ، وذلك بمناسبة وضع حجرها الأساسى فى نفس السنة المتقدمة .

وبعد فهل استطعت أن أفهرس لبعض جوانب هذه « المعلمة الأثرية » القائمة بين الأسواق الصاخبة ، والمصانع المزدحمة ، والدروب الملتوية الضعيفة ؟

أعتقد أن جانباً من تاريخ المغرب المعمارى يكمن وراء هذه الحروف المنحوتة ووراء هذه النقوش ، وأعتقد أنه من الخير لو تتضافر جهود الآثاريين للعناية بهذه الجهة ، فما من أثر إسلامى بسائر البلاد إلا وتعرض للغزو والتخريب ، لكن آثارنا هنا بقت — إلى حد — محفوظة ، وهى تنتظر منا أن نسهم فى الابقاء عليها ، وهى — كما ترى — آثار ما تزال غضة ولو أن قرونا طويلة تعاقبت عليها ...

مراجع البحث

١ – القرطاس ، الجزء الأول ، طبعة فاس ، صفحة ٧٧

٢ – القرطاس ، ص٧١ ؛ ابن خلدون ، الجزء ١٦ ، طبعة دار الكتاب اللبناني ، ص٤٢٧ ؛ الاستقصا ، الأول ، ١٧٩

٣ – القرطاس ، الجزء الأول ، ص ٨٧ ، طبعة المغرب سنة ١٩٣٦

٤ – Les Mosquées de Fès et du Nord du Maroc par Boris Maslow : L'introduction de M. Terrasse page (XI)

٥ – القرطاس ، الجزء الأول ، طبعة المغرب ، ص ٨٨–٨٩

٦ – ARS orientalis, volume II, 1957 : La Mosquée d'Alquarawâyin à Fès et l'art des Almaravides par Henri Terrasse. Page 143

٧ – Les Mosquées de Fès par Maslow, page 173

٨ – ARS orientalis, volume II, 1957 : La Mosquée d'Alquarawâyine à Fès et l'art des Almaravides par Henri Terrasse, page. 143

٩ – القرطاس ، الجزء الأول ، طبعة المغرب ، ص ٨٨

١٠– زهرة الآس ، ص ٤٢

١١– القرطاس ، الجزء الأول ، طبعة المغرب ، ص ٩٦–٩٧

١٢– القرطاس ، صفحة ٤٣–٤٤

١٣– القرطاس ، ص ٢١

١٤– La Grande Mosquée de Taza par Terrasss page 56-57-58

١٥– القرويين في أحد عشر قرنا للمؤلف ...

١٦– القرطاس صفحة ٩٢

١٧– Les Mosquées de Fès par Maslow, page 45-46

١٨- القرويين فى أحد عشر قرنا للمؤلف ...

١٩- نزهة الحادى للوزان ، صفحة ٢٠٥

٢٠- الاستقصا للناصرى ، طبعة المغرب ، الجزء السادس ، ص ٥٩-٦٠

Le Maroc par Ricard page 173 -٢١

Fès avant le Protectorat par M. Le Tourneau page 131-132 -٢٢

L' Histoire du Maroc par Henri Terrasse -٢٣

٢٤- جذوة الاقتباس لأبى القاضى ، طبعة فاس ، صفحة ٤٩

٢٥- القرويين فى أحد عشر قرنا للمؤلف ، الفصل المتعلق بالأجراس ...

٢٦- الاستقصا ، الجزء الثالث ، صفحة ٦٣-٦٤

٢٧- الجذوة ، طبعة فاس ، صفحة ٤٦

٢٨- الجذوة ، صفحة ٣٠

٢٩- زهرة الآس ، طبعة الجزائر ، صفحة ٣٨

٣٠- الاستقصا ، الجزء الرابع ، صفحة ٣٤

٣١- الجذوة ، صفحة ٢٥٨

٣٢- مخطوط لقاضى فاس المرحوم السائح .

٣٣- مكتب الوثائق والمستندات بوزارة التربية الوطنية .

٣٤- الجذوة ، صفحة ٣١

٣٥- الحوالات المشار اليها توجد حاليا بنظارة أوقاف مدينة فاس .

٣٦- الجذوة ، صفحة ٨٧

٣٧- القرويين فى أحد عشر قرنا للمؤلف ، الفصل الخاص بالقبة الغربية .

٣٨- الجذوة ، صفحة ٣٥

٣٩- Inscriptions Arabes de Fès par Alfred Bel, page 85

٤٠- Hespéris, 4e trimestre, Année 1923, page 517

٤١- زهة الحادى لليفرنى ، طبعة فاس ، ص ٢٠٥

٤٢- Inscriptions Arabes de Fès, Fig 32

٤٣- القرويين فى أحد عشر قرنا ، الفصل الخاص بالقبة الشرقية .

٤٤- المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور ، مخطوط مصور بالخزانة العامة تحت رقم ١٠٥٧ ، فى الفصل الخامس العشرين : فصل فى علو همته .

٤٥- القرويين فى أحد عشر قرنا ، الفصل الخاص بالقبة الغربية .

٤٦- مخطوط فى الخزانة يحمل رقم :

٤٧- مخطوط فى ملك الأستاذ محمد ابراهيم الكتانى .

٤٨- القرويين فى أحد عشر قرنا ، الفصل الخاص بالساعات بالقرويين .

٤٩- الدر الفاخر للمؤرخ المغربى مولاى عبد الرحمن بن زيدان ص

٥٠- القرويين فى أحد عشر قرنا ، الفصل الخاص بالقبة الشرقية .

(+) Le Maroc dans les premiers années du XVIe Siècle, page 101-103

(*) بحث للأستاذ العابد الفاسى أمين خزانة (القرويين) .

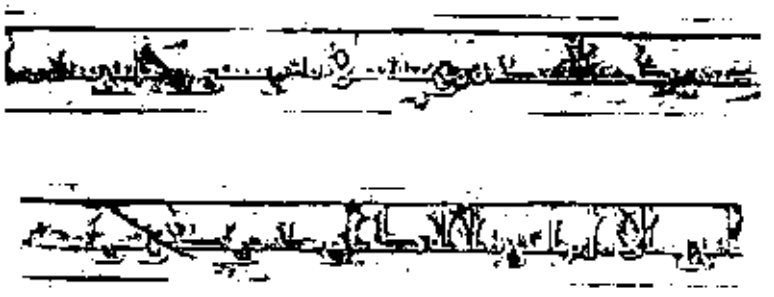

أقدم خط عربي عرف بالمغرب

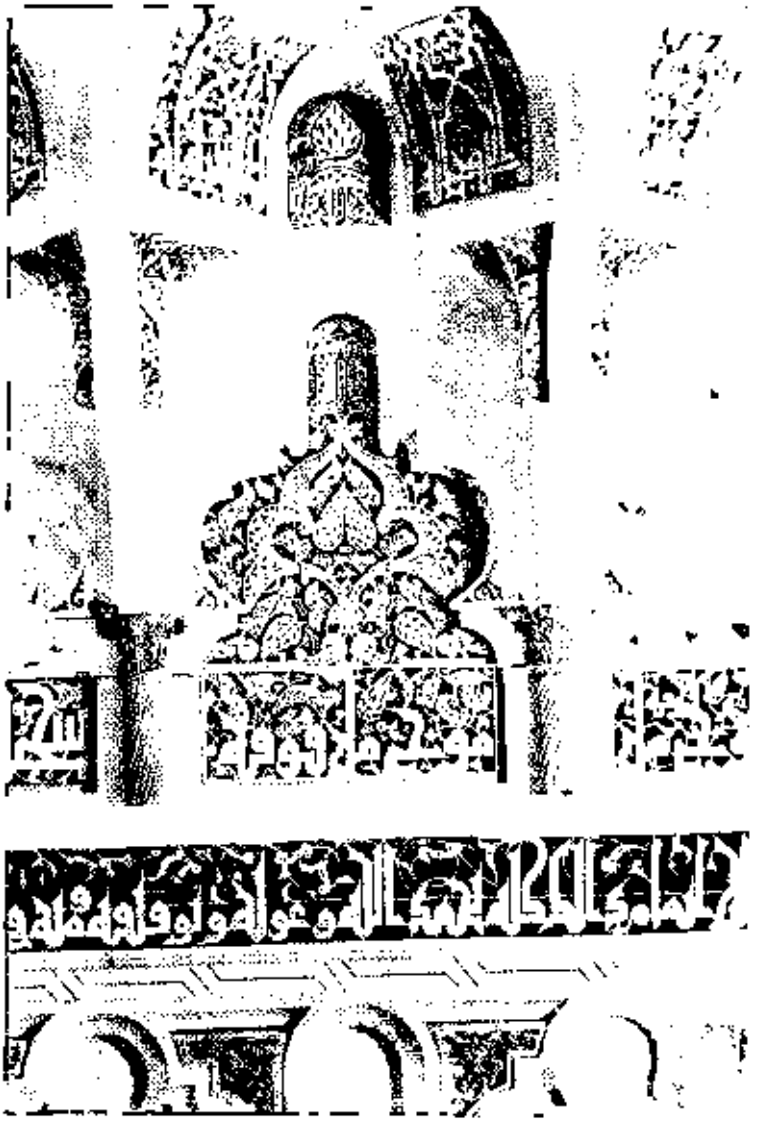

جانب من القباب المقرنصة ذات الأبعاد الرباعية

وثيقة الخزانة العلمية المرينية على بابها ...

باب لوح أعلى وتقرأ فيه : "وقد عذب الدار الآخرة"